حين تصبح الطمأنينة غريبة

لعلّ أخطر ما يصيب مجتمعًا ما ليس أن تضعف ثقة أبنائه بعضهم ببعض، بل أن يألفوا ذلك حتى يصبح الاطمئنان غريبًا، وسوء الظن حكمة. وقد نهى القرآن عن الاسترسال في الظنون، فقال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: 12).

لأننا حين نبلغ تلك النقطة، نكون قد خسرنا أكثر من علاقاتنا؛ خسرنا شيئًا من إنسانيتنا نفسها. وقد لخّص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام معنى الأخوّة الإنسانية في وصيته لمالك الأشتر "فإنهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق" (نهج البلاغة، الكتاب 53). ولن نستطيع أن نحمي أنفسنا من الخذلان كليًا، لكننا ربما نملك أّلا نجعله دستورًا نحكم به على الجميع.

والثقة، كما يعرف كل من درس تآكل الصخور، لا تنهار بضربة واحدة، بل تتآكل مع كل وعد لم يفِ صاحبه به، وكل أمانة لم تُحفَظ، وكل موقف يستغلّ فيه أحدهم طيبة الآخر. وقد قرن القرآن أداء الأمانة بالعدل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: 58). وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: "إن الله عز وجل لم يبعث نبيًّا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر" الكُليني، الكافي، ج 2، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة.

وقد يكون الخذلان، ولو حدث مرة واحدة، كافيًا ليجعل الإنسان أكثر حذرًا لسنوات؛ فما بالك بمن تكررت معه التجارب؟

غير أن الأخطر من الخيبة ذاتها أننا لا نتوقف دائمًا عند حدود التجربة التي آلمتنا، بل نحملها معنا إلى علاقات أخرى، ونضع أشخاصًا لم يسيئوا إلينا في دائرة الشك، لمجرد أنهم يشبهون، في ظروفهم، أشخاصًا خذلونا من قبل. وليس معنى رفض سوء الظن أن نكون سذّجًا أو نتجاهل ما يدعو إلى الحذر؛ فالقرآن يدعونا إلى التثبّت حين يردنا خبر، فيقول: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: 6). لكنّ التثبّت شيء، وتعميم الشك على الناس جميعًا شيء آخر.

وهكذا ندخل في دائرة غريبة.. كلما قلّت ثقتنا بالآخرين، أصبح تعاملنا معهم أكثر تحفظًا، وكلما

شعروا بتحفظنا، تراجعت مساحة التقارب بيننا.

فكم من شراكة لم تبدأ لأن أصحابها لم يطمئنوا بعضهم إلى بعض؟ وكم من مبادرة خيرية تعثرت بسبب الشكوك؟ وكم من علاقة جميلة انتهت بسبب خلاف كان يمكن تجاوزه لو وجد الطرفان مساحة من الصراحة والاطمئنان؟

فهل من عودة؟ أظن أن ذلك ممكن، لكن ليس بمجرد أن نطالب الناس بأن يثقوا بعضهم ببعض. فلا يمكن أن نطلب من إنسان خذلته التجارب أن يتصرف وكأن شيئًا لم يحدث، ولا يمكن أن نبني الثقة بالكلام بينما يقول سلوكنا شيئًا آخر.

ستعود الثقة عندما تصبح الكلمة التزامًا، ويصبح حفظ الأسرار أصلًا لا فضلًا. وقد أمرنا الله بالوفاء بالعقود، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة: 1)، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا﴾ (الإسراء: 34). وتعود حين نتعلم أن حقوق الناس لا تسقط لأنهم أصدقاؤنا أو أقاربنا، وأن طيبة الإنسان ليست فرصة لاستغلاله.

بهذه الأفعال الخفية تُرمَّم الثقة، شقًّا بعد شقّ. فمن يبدأ بها لا ينقذ علاقة واحدة فحسب، بل يُبقي في الدنيا دليلًا على أن الطمأنينة ما زالت ممكنة، وأن الإنسان، رغم كل ما جرى، لا يزال جديرًا بأن يُؤتمن.

فحين يخشى الناس بعضهم بعضًا، لا تعود المشكلة فيمن نأتمنه على أسرارنا وأموالنا فحسب، بل في مجتمع أصبح فيه الاطمئنان إلى إنسان آخر ضربًا من المجازفة.

وذلك، في تقديري، هو الفقد الذي ينبغي أن نخافه حقًا.